

المنهج الإصلاحى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ابان الاحتلال
الفرنسي

The reformist approach of the Algerian Muslim Scholars
Association
during the French occupation

د.رضا حيرش¹

¹ جامعة يحي فارس، المدينة (الجزائر)، haireche.redha@univ-medea.dz
تاريخ الاستلام: 2023/09/09 تاريخ القبول: 2023/09/15 تاريخ النشر: 2023/11/27

ملخص:

تناولت هذه الدراسة جانبا من مظاهر التدهور في المجتمع الجزائري ابان الاستعمار الفرنسي، ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين بقيادة عبد الحميد ابن باديس، حيث أسست لعملية اصلاح شاملة تربوية أخلاقية اجتماعية، بعد عودة عبد الحميد الحجاز واقتناعه بحتمية تفعيل العمل المنظم، اعتمادا على العلم والأفكار الهادفة الفعالة والتربية العقائدية والدينية والسياسية الصحيحة، واكتساب الثقة والشرعية لدى الشعب الجزائري، بالاعتماد على أدوات فعالة تتعلق بالهوية كاللغة والدين ومؤسسات كالمسجد والمدرسة والنوادي والمسرح وتكثيف المحاضرات والندوات والرحلات والصحافة والبعثات العلمية، وقد برز كل نشاطه الإصلاحى في المساجد التي خلدت اسمه الى اليوم والمقالات والمؤلفات التي خلدتها الصحف التي أنشأها والنتائج الخالدة للوعي المجتمعي التي كللت لاحقا بالاستقلال ودحض المستعمر ودعاة الاستعمار والادماج والتجنيس والدجل.

الكلمات المفتاحية: مظاهر التدهور؛ المنهج الإصلاحى مؤسسات الاصلاح

Abstract:

This study dealt with an aspect of deterioration in Algerian society, during the French colonialism, culturally, ideologically, socially and politically, before emergence of the Association of Algerian Muslims Scholars, after the return of Abd El Hamid Ibn Badis from Al-Hijaz and his conviction of the inevitability of activating organized work, depending on knowledge, effective ideas, correct ideological, religious and political education, and confidence and legitimacy among the Algerian people, relying on effective tools related to identity such as language and religion and institutions such as mosques, schools, clubs and theater, and intensifying lectures, seminars, press and scientific missions, and all of his reform activity has emerged in the mosques that immortalized his name to Today, and to the articles and writings that were immortalized by the newspapers he created and the immortal results of societal awareness that later culminated in independence and the refutation of the colonialists and the colonialism, integration, naturalization

Keywords : The Reform Approach

1- مقدمة:

للمجتمع مراحل تدهور وتقهقر تسجل ظهور مصالحين ومفكرين يحملون أفكارا ثورية تكونرد فعل لتلك الظروف المقلقة التي يعيشها مجتمعهم، وما سلسلة المصلحين الذين ظهروا في العالم العربي والإسلامي إلا دليل على ذلك، والتي كان لها دور في الحركات التي سوف تظهر في العالم الإسلامي ومنها حركة جمعية العلماء المسلمين بالجزائر- (1962) 1931م (والتي قادها عبد الحميد بن باديس 1889-1940)م (نجد هي صرح

بتأثره برشيد رضا عندما يقول: "لقد بلغ السيد رشيد رضا من الفقه (في) الدين والتمكن من علوم الكتاب والسنة الخبرة بأحوال الزمان منزلة ما نخال أنها تتاح لأحد من بعده إلا في دهر طويل، لأن الأسباب التي سيرت له لا نراها اليوم مجتمعة في مكان غير أن هذا لا يمنعنا من الاعتبار بحياته والأسباب التي أتاحت له لناخذ بها ونبحث على الآخر بها." ولقد كان العلماء في مجملهم يرون بأن الحركة الإصلاحية الحديثة في الجزائر قد دخلت في تشكيلها عدة عوامل منها كتب المصلحين الدينيين من أمثال: ابن تيمية وابن القيم الجوزية والشوكاني "كما كان لواقع المجتمع الجزائري دورا كبيرا في تشكيل الجمعية حيث أن البرامج الإصلاحية كانت تنطلق من طبيعة المجتمع بما عاناه من مظاهر التدهور على جميع المستويات، علما بمستوى الديني الاجتماعي والسياسي حيث يقول ابن باديس: "ما وصل إليه الشعب الجزائري من حالة تدهور في الثلث الأول من القرن الحالي في النواحي الدينية أصحاب البلاد الحقيقيين.

2- أهداف الدراسة: تكمن أهداف الدراسة فيما يلي:

- معرفة دور البعد الثقافي والسياسي للفلسفة الإصلاحية الباديسية.
- معرفة أهم الوسائل في منهج ابن باديس في عملية الإصلاح.
- معرفة مظاهر الإصلاح الباديسي في المجتمع الجزائري.
- توصيف موقف الاستعمار من الحركة الإصلاحية الباديسية.

3- مظاهر التدهور في المجتمع الجزائري: قبل ظهور جمعية العلماء

لقد برزت مظاهر التأزم في المجتمع الجزائري على كل المستويات العقائدية، الاجتماعية، والسياسية، وكان لها الدور الكبير في ظهور حركات الإصلاح (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فكيف كان ذلك؟

3-1 الجانب العقائدي: وقد برزت في رأي ابن باديس على مستويين:

أولهما: السياسة الاستعمارية التي عملت على تجديد الدين من فاعليته الاجتماعية وجعله يقتصر على الطقوس والعبادات بالاعتماد على من العلماء من إلقاء الدروس الدينية واقتصار الكتاتيب رغم قلتها - حيث حاربها الاستعمار - على تحفيظ القرآن دون تفسيره، كذلك المساجد: "ففي مدينة الجزائر وحدها تم غلق 98 مسجداً من بين 108 التي كانت موجودة آنذاك" وعدم السماح للمعلمين بالتدريس ما لم تمنحهم السلطات الفرنسية الرخصة اللازمة لذلك، هذا علاوة عن الحملات التنصيرية التي كان يقوم بها رجال الكنائس في القرى والمدن.

ثانيهما: ويرجع إلى بعض شيوخ الطرق والزوايا التي كانت "تأثيماً يبرأ منه الإسلام وتصرح بأنه من صميمه"، ومما زاد في خطورة هذه الزوايا كثرة انتشارها حيث بلغ عددها 345 زاوية يتردد عليها ما يزيد عن (295000) مريد وأهم هذه الطرق:

- الطريقة الدرقاوية (تيارت): (والتيتدعو إلى التعايش السلمي بين الشعوب والاحسن الجوار بين الأديان مع فرنسا كنوع من الائتلاف) الإسلامي-المسيحي).

- العلوية: وهي فرع من الدرقاوية همها الوحيد معارضة فكرة جمعية العلماء المسلمين.

- النيجانية: وهي أقوى تلك الطرق في الجزائر، ومعظم أتباعها كانوا من كبار الأغنياء والتجار والموظفين عند فرنسا وأصحاب الأملاك، ولقد قدمت هذه الحركات مساعدة كبيرة للاستعمار الفرنسي حينما استطاعت التمكن من

إقناع الجزائريين بأن الاستعمار هو ابتلاء من الله ولا يجوز شرعا مقاومته، لأن المقاومة في هذه الحالة تعني رفض مشيئة الله، مما جعله يوفق إلهد كبير في تكريس ما يسميه مالك بن نبي القابلية للاستعمار.

3-2 الجانب الاجتماعي: فقد كان لتكوين المجتمع الجزائري من خلال الطبقات والشرائح الاجتماعية الموجودة دور في تحديد طبيعة العلاقة حيث نجد أن الشعب الجزائري كان يتكون في أغليبتها الساحة من الطبقة التي تتمثل في صغار الفلاحين، وعمال الزراعة والعمال الحرفيين (الحرفيين)، وصغار التجار في المدن وصغار الموظفين في الإدارة الفرنسية، بينما كانت الأقلية الأوربية مكونة أساسا من الفرنسيين، المالطيين والاسبانيين وكانوا قسمين : قسما لإقطاعيين الذين استحوذوا على أخصبالأراضي الزراعية في الريف خاصة بإيعاز من الحكومة الفرنسية حيث صرح المارشالكلوز يل في 10 أوت 1835م "لكمأن تنشأ من المزارع ما تشاءون، ولكم أنتستولوا عليها في المناطق التي نحتلها، وكونوا على يقين بأننا سنحميكم بكل مانملك من قوة"، فالطبقة البرجوازية الأوربية "التي كانت تتألف أساسا من كبار الملاك الأوروبيينالذين استحوذوا على الأرض التي تتجاوز مساحتها المائة هكتار ... التي كانت تزرع بالحبوب والكروم والحمضيات كانت هذه الطبقة البرجوازية تحتكر 80% منالأراضي الزراعية."

فهؤلاء الملاك يشكلون من دون منازع الطبقة البرجوازية المسيطرة اقتصاديا بفضلالأموال التي تمتلكها، ودخولها في السوقالعالمي-والسيطرة السياسية - باستخدامها السلطة السياسية لأغراضها الشخصية-والسيطرة إيديولوجيا - باستخدامها مجمل وسائل الإعلام، إلى جانب هؤلاء البرجوازيين الأوربيين كان هناك بورجوازيون جزائريون لكن ليس لهم نفس الوزن السياسي، وقسم آخر يشكل الطبقة الرأسمالية التي تسيطر على النشاط الاقتصادي

والماليو التجاري في المدن، فكانت الحكومة الفرنسية تشجع "البرجوازية الصناعية والتجارية ذات الأصل الأوربي، وتمنحها إمكانية توسيع قاعدتها الاقتصادية دون أن يغير هذا من وضعية العامل الجزائري خاصة في النقص في مناصب الشغل الذي كان يعانيه مما دفعه إلى الهجرة إلى فرنسا للعمل هناك، والبقية من الجزائريين ضلوا يعملون إما كخماسين لدى الملاك الأوربيين أو كيد عاملة رخيصة في مصانع وموانئ المدن الكبرى والساحلية، مما جعل العلاقات الاجتماعية السائدة آنذاك في المجتمع عبارة عن علاقات سيطرة وتحكم من طرف الإقطاعيين والرأسماليين من المستوطنين، وعلاقات خضوع وعبودية من طرف الأغلبية العظمى من المجتمع الجزائري، ويمكن تصورها ينتج عن هذه العلاقة من حراك قائم على الصراع نظرا لانعدام العدالة الاجتماعية.

3-3 الجانب السياسي: ويظهر الفساد أساسا في التباين بين القوانين التي تحكم الجزائريين والتي تسمى بقانون الأهالي (وكان قانون عسكري) والقانون المدني الذي كان يحكم الأوربيين كان نفسها القانون المطبق في فرنسا، وقد شجعت السلطات الفرنسية الأوربيين على الهجرة إلى الجزائر مقدمة لهم كل الضمانات "وكانت سياسة ملء الجزائر بالأوربيين هي السياسة الثابتة للمسؤولين الفرنسيين "وكان الجنرال "بيجو "الحاكم العام في الجزائر يكرس هذه السياسة العنصرية المتطرفة ضد الجزائريين، فلقد أعلن في مجلس النواب الفرنسي في 14 مايو سنة 1840 م فيما يخص تهجير الأوربيين للجزائر فقال : "يجب أن يهجم أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوربيين على الجزائر ويجب أن تبعثوا بمعمرين... ويجب أن تعطى لهم الأراضي الخصبة والواقعة على مجاري المياه من غير بحث عما يملك هؤلاء الأراضي قبلا لأن يجب أن تقسم عليهم قبل كل أحد."

4- أنواع وأنماط الإصلاح عند ابن باديس:

إن للإصلاح مفهوم عام وطرق متنوعة تحددها طبيعة المجتمع من جهة واتجاه المصلحين ومطلقاتهم، فهكذا كان مبدأ الإصلاح عند ابن باديس ينطلق من القرآن كمبدأ وظروف المجتمع الجزائري كواقع يحدد وسائل التغيير وطرقه، ولقد مس تدهور المجتمع تقريبا كل المستويات وجميع الميادين، إلا أن الأساس في الإصلاح عند ابن باديس يركز على ثلاثة أنماط وهي: الإصلاح التربوي، الإصلاح الخلقي، الإصلاح الديني، فكيف يتصور ابن باديس هذه الأنماط ولماذا ركز عليها؟

4-1 الإصلاح التربوي: الباحث في تراث ابن باديس من خلال تفسيره للقرآن الكريم وكتابه التي عالج فيها أمور التربية والتعليم والإصلاح الديني والخلقي والاجتماعي أو مقالاته التي نشرها في جرائد المنتقد والبصائر والسنة والصراف والشرعية ومجلة الشهاب والدارس لنظامه التربوي الذي طبقه مع طلبته في مدارس الجمعية والجامع الأخضر، يجد بأن نظرة ابن باديس للتربية لا تختلف عن نظرة المربين الإسلاميين من حيث مبدأها لكنها اختلفت من حيث الهدف وفقا لطبيعة المرحلة التي كانت تقتضي تكريس شرعية فكرة الإصلاح وترسيخ نظام اجتماعي جديد، ولقد عبر ابن باديس عن مفهوم التربية قائلا: "حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، نظف بدنك، نظف ثوبك يبعث الخفة والنشاط في نفسك، وتنبل في عين غيرك وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتكم قلة أهلك وولدك ومن رعيتكم مما بقي نفسك، وسيرهم على نظام صحي، وقانون أدنى تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك، حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي نهدي به إلى طريق السعادة في حياتك، فكن ابن وقتك سر مع العصر الذي أنت

فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل، كن عصريافي فكرك وفي عملك. "

نستنتجمن قول ابن باديس أنه فهم التربية علأنها إعداد للحياة، إذ نظر إليها من جميعالنواحي :الجسميةوالنفسية والعقلية والاجتماعية كما يمكناعتبار هذا المفهوم الحديث ثورة على القيمالتي كانت سائدة آنذاك وكذا طرق التدريسومحتواها، وكأن ابن باديس يتفق مع"ديوي"فينظرية البراغماتية في التربية .لقدركّز ابن باديس كثيرا على التجديد فيالتربية حيث طالب بمسايرة مستجدات العصورالتطلع على الأفكار الحديثة في كلالميادين خاصة التربوية دون التنكر للأصولالشرعية ومصادر الثقافة والتراث الإسلامي.

يقولابن باديس :إنالذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هوأوروبا فضروري لكل أمة تريد أن تستثمرثمار تلك العقول الناضجة ودخائل الأحوالالجارية أن تكون عالمة حية من لغات أوروبا،وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة فيصحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنةالتي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل. "

كمركز ابن باديس في تصوره للإصلاح التربوي على ضرورة إصلاح العلماء والمعلمين أياالموجهين والمسيرين لأن في اعتقاده أنصلاحهم يؤدي إلى صلاح المجتمع"لايصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم ...ولنيصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فإذا أردنا أن نصلح المعلمين فلنصلح التعليم"، ولقد واجه ابن باديس مشكلة الجزائر علأساس أنها متعلقة بالنفس حينما اختارالتربية كوسيلة للإصلاح والتغيير واعتمدبالخصوص على إصلاح التعليم كوسيلة لتحقيقهذا الهدف، فلقد اشترط مثلا أن تراعى فيالتعليم خصائص المتعلم النفسية والعقليةوهذه المفاهيم مستمدة من التربية

الحديث، هكذا نجد أن ابن باديس استطاع أن يخلق تربية فعالة تقوم على الوسائل الحديثة والمفاهيم الجديدة مع جعلها تتماشى دائماً ومبادئ الدين الإسلامي، فلقد عمل على تطبيق، الأصالة دون التزمّت والحدّاء دون الانسلاخ من الانتماء والهوية الإسلامية.

4-2 الإصلاح السلوكي الأخلاقي : نعنيتها الأخلاق العملية التي تترجم إلى سلوك يومي واقعي يعيشه أفراد المجتمع مفهوم أو عملاً، ما نلاحظه من هذا القول هو الاهتمام الكبير بالأخلاق في بناء المجتمع، لكن ليس كمبادئ نظرية لكن كسلوك عملية وهذا هو المهم في رأي ابن باديس "الأخلاق العملية". وبما أن الأخلاق تتفاعل مع النفس أكثر من أي جانب آخر، فإصلاح النفس لا يتم بمعزل عن الأخلاق وهكذا شكل الاهتمام بالأخلاق إحدى الوسائل الأساسية لتكوين النفس وتطهيرها، وإصلاح كل المجتمع "صلاح النفس هو صلاح الفرد، صلاح الفرد هو صلاح المجتمع" فإذا ما تحقق تهذيب الأنفس وإصلاحها يأتي دور تغيير المؤسسات الاجتماعية، فإصلاح النفس المنطلق الأولي الضروري لكل إصلاح.

وبالتالي التربية عند ابن باديس تقوم على الجمع بين التصور الصحيح والفهم العميق ثم العمل والتطبيق للمبادئ الأخلاقية المستمدة من التشريع الإسلامي.

5- أهم المحطات التاريخية في عملية الإصلاح الباديسي:

لقد مر الإصلاح عند ابن باديس بخمسة مراحل ابتداء من سنة 1913م، ولقد كان لكل مرحلة خصائصها ومميزاتها وسوف نتعرض بالشرح لهذه المراحل حتى نتساعدنا على فهم التغيرات التي ميزت وسائل الإصلاح وكيفية انعكاس الظروف العامة للمجتمع على طرق استعمال الوسائل وكيفية تطبيقها.

5-1 المرحلة الأولى : عودة ابن باديس من تونس: وتنتقل هذه المرحلة من بداية سنة 1913 م إثر عودته من تونس حيث كان يدرس في جامع الزيتونة وتميزت هذه المرحلة بمحاولة إلقاء دروس عامة في الجامع الكبير على عامة الناس، حيث كان يتناول فيها شرح كتاب "الشفاء" للقاضي عياض "ولم تستمر هذه المرحلة طويلا حيث أوقف ابن باديس عن التدريس من طرف السلطات الفرنسية بإيعاز من رجال الطرقية، قال ابن باديس: "نهضت أنا نهضة لا يخشاها النصراني لنصرانيته ولا اليهودي ليهوديته، بل ولا المجوسي لمجوسيته ولكن يجب أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته". "ولاشك في أن ابن باديس كان يشير إلى أولئك الطريقين الذين كانوا يقفون أمام كل محاولة إصلاحية لأن ذلك يهدد وجودهم ويفقدهم سلطتهم في المجتمع وفي أعين الاستعمار، ولم يكتب لهذه المرحلة أن تنعم طويلا، حيث انتهت في نفس السنة التبدأت فيها.

5-2 المرحلة الثانية : انتقال ابن باديس إلى الحجاز: وتبدأ في منتصف سنة 1913 م أي مباشرة بعد منع ابن باديس من إلقاء الدروس في الجامع الكبير حيث انتقل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك التقى بأستاذه التونسي، حيث جدد له عهده الذي قطعه معه في الجزائر بأنه لن يقبل وظيفة حكومية في الإدارة الفرنسية، وخلال وجوده في الحجاز لمدة ستة أشهر مكث من 3 أشهر في المدينة تعرف على الشيخ إبراهيم حيث كانا ينظران لقاءات ليلية كل يوم بعد صلاة العشاء يفكران أثناءها في خطة لإخراج الجزائر من الأزمة التي كانت تعيشها آنذاك "كانت هذه الأسرار المتواصلة كلها تدبير للوسائل التي تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضة الشاملة التي كانت تكلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، بجانب لقاءات ابن باديس بالشيخ إبراهيم كان يلقي دروسا في المسجد النبوي الشريف مما أكسبه خبرة مواجهة الناس، وأثناء عودته إلى الجزائر مر ابن باديس بسوريا، لبنان ومصر واحتك

بنخبة من العلماء والمفكرين جعلته على اطلاع بما يجري في العالم الإسلامي من تطورات، ولقد انتهت هذه المرحلة بعودته إلى قسنطينة في نهاية نفس السنة.

3-5 المرحلة الثالثة : عودة ابن باديس من الحجاز: ابتدأت هذه المرحلة في نهاية سنة 1913م، إثر عودة ابن باديس من الحجاز حيث أدرك من خلال الفترة التي قضاها هناك والجولة التي قادته إلى بعض الدول الإسلامية، بأنه لا سبيل للخروج بالمجتمع من التدهور والتأزم إلا بالعلم والتربية فشرع في تطبيق ما اتفق عليه مع الإبراهيمي، حيث توسط له والده مصطفى بن مكي بن باديس لدى السلطات الفرنسية وتمكن من الحصول على رخصة للتدريس بالجامع الأخضر بقسنطينة فتبدأ بالتدريس به وكان إلى جانب تعليم الصبيان القراءة والكتابة كان يحفظهم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، كما اتخذ من دروسه وسيلة لمحاربة الطرقية، وقد أفصح عن ذلك بقوله: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إنما هنالك من استغلال وإذلال وتجميد للعقول وموت للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور."

نستطيع أن نعتبر هذه الأفكار ثورية بالرغم من أن ابن باديس لم ينادي بالاستقلال التام مباشرة، غير أن هذه الأفكار كانت عبارة عن تحضير ثوري وتمردى ضد الاستغلال مهما كانت صيغته، وسنجد تقريبا في كل أفكاره هذا النوع من الطرح وهذه اللهجة، كما لجأ ابن باديس في هذه المرحلة إلى الصحافة كوسيلة لبث أفكاره وتأكيد شرعيتها مستمداً ذلك من اللغة، الدين، الوطن، فأصدر جريدة "المنتقد" لكن لم يصدر منها سوى 18 عددًا حيث أوقفها الحكومة الفرنسية، ثم خلفتها جريدة الشهاب.

فكان على ابن باديس إلى جانب مواجهته لمخططات المستعمر الرامية إلى مسخ الشخصية الجزائرية، مقاومة الطرق الصوفية التي كان يرى بأن خطرها لا يقل عن خطر الاستعمار، واستمرت هذه المرحلة إلى غاية 1929م السنة التي تحولت فيها جريدة الشهاب إلى جريدة شهرية بعدما كانت أسبوعية.

4-5 المرحلة الرابعة : مرحلة العمل المنظم: ابتدأت هذه المرحلة عام 1930م، وهي الذكرى المئوية للاستعمار الفرنسي للجزائر، ولقد احتفل الفرنسيون، لهذه الذكرى التي أدت إلى رد فعل مجموعة من العلماء الجزائريين بعد تسعة أشهر من ذلك، حيث اجتمع علماء من مختلف الاتجاهات (إصلاحيون، محافظون، ...)، بعدما كانت الفكرة قد نضجت أثناء مشاورات الشيخان ابن باديس والإبراهيمي سنة 1913م موافق الجميع على إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد ضمت 72 عالماً، وتم الاتفاق على انتخاب ابن باديس رئيسها وكان ذلك في 5 ماي 1931م مبنادي الترقى، وبدأ العمل المنظم حيث توزع العلماء على مختلف أنحاء الوطن لنشر أفكارهم الهادفة إلى توعية الشعب وتهيئته لإعدادة ليكون في مستوى النهضة المخطط لها، فأرسل الإبراهيمي إلى تلمسان وتركا طيب العقبي في الجزائر العاصمة أما ابن باديس ففضل البقاء في قسنطينة، وبنقل الحركة إلى الشرق والغرب والوسط أصبح من الصعب على الحكومة الفرنسية محاصرتها أو مراقبتها.

5-5 المرحلة الخامسة : اكتساب الشرعية: لقد تمكنت جمعية العلماء برئاسة ابن باديس أن تفرض شرعيتها حينما كسبت ثقة أغلبية الشعب الجزائري، واستطاعت أن توحد جميع الرؤى المختلفة، وفي سنة 1933م مكتب ديارمي يقول: "أنالجزائريين كانوا يسمون ابن باديس "مرشد الأمة" و"إمام البلاد" و"أبا النهضة" فباكتسابه ثقة واحترام كافة الاتجاهات السياسية فيالجزائر،

استطاع أن يجمعها بعد أن وجهها دعوة رسمية لعقد "مؤتمر إسلامي لدراسة قضية الجزائر من كافة جوانبها وتقرير ما يراه صالحا في شأنها للخروج بالأمة من حالة البأس العام والتذمر الشامل، وكسر الجمود الذي يحيط بالقضية الوطنية من كل جانب."

واتجه وفد في 07.07.1936 إلى باريس ليعرض اللائحة القانونية علنا للحكومة الشعبية التقدمية، لكن هذا الأخيرة، رفضت القضايا المتعلقة بالإسلام خاصة فعاد الوفد خائبا مما جعل ابن باديس يخرج من حالة "التقية" إلى العهد "الوضوح" ويتجلبذ في قوله: "إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر."

ويمكن استنتاج أن ابن باديس كان يحمل نوايا سياسية وهي الاستقلال اعتماداً على المشروع الإسلامي وقد صرح عن ذلك في كلمته التي نشرت في جريدة "البصائر" لمنا عيش؟ فأجاب: "أعيش لإسلام والجزائر."

1- وسائل وأدوات الإصلاح عند ابن باديس:

لقد اقتنع ابن باديس أن النهضة تقوم أساساً على تكوين النفس وإصلاحها مما علق بها من أوهام وخرافات لذلك اعتمد على التربية كأساس لبناء الشخصية الجزائرية إذ أن المتطلع على كتابات ابن باديس وخطوات عمله يلاحظ مدى اهتمامه بالتربية خاصة عن طريق بعض المؤسسات الاجتماعية

الرسمية وغير الرسمية كالمسجد، الصحافة، المدرسة، المحاضرات والخطابات، ولقد استمد ابن باديس هذا المفهوم من القانون الإلهي { :إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. }

-الدين :لقد حاول ابن باديس أن يبحث على طرق إعادة الفعالية للدين الإسلامي، أي الفعالية الاجتماعية، ولقد بدأ بتصحيح مفهوم الدين الإسلامي وتصفيته مما علق به من أباطيل وخرافات البعض اعتقادا منه أن الدين عاجز على أن يقوم بوظيفته الاجتماعية وهو يحمل تصورا رجعيا لا يدفع للأمام، لذلك قسم ابن باديس مفهوم الدين إلى قسمين:

-الإسلام الذاتي": هوتلك الثورة على الجمود الفكري وعلى الركود في الفعالية الاجتماعية وعلى المغالطة في تصور عالم الغيب والخطأ في تصور رسالة الإنسان على الأرض"

-الإسلام الوراثي :وهو التصور الذي تعلمناه من خلال أبائنا أو عن طريق التنشئة الاجتماعية أي ما نقلته لنا الأجيال السابقة.

-اللغة :إن اللغة عند ابن باديس أداة للمحافظة على الشخصية الوطنية وحمائتها، فلقد عملا للاستعمار على محاربتها وإقصائها حتى تعطل انتشار الثقافة الإسلامية، فعمد ابن باديس من خلال مشروعه إلى إعادة الاعتبار للغة الوطنية حتى تصبح أداة تبليغ وتعبير وتفكير وبحث علمي وتواصل بين الشعوب الإسلامية، والهدف الأسمى هو أن تصبح أداة وحدة، لا أداة تفرقة كما أرادها الاستعمار إذ يقول: "تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة يربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد."

ونلاحظ من قول ابن باديس أن لوحدة اللسان أثرا عميقا في بناء المجتمعات حيث اعتبرها أكبر قيمة من العرق وهو القائل: شعب الجزائر مسلمو إلى العروبة ينتسب

- التاريخ: يرجع سبب اهتمام ابن باديس بالتاريخ إلى توعية المجتمع الجزائري بحقيقة تاريخه الذي عمل الاستعمار على تشويهه حينما اعتبر بأن "الشعب الجزائري كان أشخاصا بشرية تواجدت على أرض بور تسودها الفوضى والخراب، لا يدرimen أين أتى ولا أين هو وإلى أين المصير

وليؤكد الوجود التاريخي والحضاري للهوية الجزائرية حتى لا يجد الاستعمار فرصة لأن يوهما المستعمر بأن فرنسا جاءت لن دفع عجلة التقدم في الجزائر بالقضاء على سلطة الداياو الطغيان التركي يقول أبو القاسم سعد الله في هذا المجال "إن الفرنسيين قد قدموا أنفسهم إلى الجزائريين على أنهم محررون لا منتصرون، كما ادعوا الفرنسيون بأن حركتهم كانت تستهدف القضاء على الدايا الطاغية فقط."

يقول الدكتور سعد الله: "إذا كانت مبادئ وأهداف العلماء لم تتغير في جوهرها فإن وسائلهم قد خضعت للظروف، ويمكننا القول إن هذه الوسائل ظلت أيضا في جوهرها واحدة وهي المسجد والمدرسة والنادي والصحافة وقد أضيفت إلى ذلك خلال الثلاثينات وسائل أخرى كانت في الواقع بمناسبات من ذلك الاحتجاجات والمقابلات وإرسال الوفود والرحلات والمشاركة في التجمعات العامة ونحوها."

نلاحظ عند تعرضنا للوسائل التي تبناها ابن باديس ارتباطها بالتربية والتعليم، ولعجزه للقيام بهذه الوظيفة لوحده عمل ما بين 1913-1920م (علتكوين المعلمين والدعاة ووزعهم على كافة الوطن، كما ارتبطت الوسائل عند ابن

باديس بطبيعة المرحلة والظروف الاجتماعية والسياسية، فلقد كان المسجد أول وسيلة يلقى من منبره الدروس ويوعي الشعب الجزائري في الفترة (1913م) أي قبل تكوين الجمعية، ولما أصبح في إطار عام وواسع استعمل طرق أخرى، كالمدارس والصحافة التي كثيرا ما أوقفها الاستعمار، وسنتعرض لأهم الوسائل والظروف التي استعملت فيها ومدى فعاليتها؟

-المسجد: لقد استعمل ابن باديس المسجد في الوقت الذي عجز عن استعمال أي وسيلة تربوية أخرى لتساعده على نشر أفكاره خاصة سنة 1913م، حيث مارس نشاطه طيلة هذه السنة من خلال المسجد ولقد وجد فيه الوسيلة التربوية الفعالة لارتباطها بالشعائر الدينية كالصلاة، ولقد قال: "المسجد والتعلم صنوان في الإسلام من ظهر الإسلام...ولمابنى النبي المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة." لكن بعد استيلاء المستعمر على الأوقاف أصبح التعليم في المساجد يكاد يكون منعما مما دفع بابن باديس إلى اقتراح إنشاء كلية دينية ليتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلمون الأمة أمر دينها، واقترح أن يشكل الجامع الأخضر نواة هذه الكلية، وتجدر الإشارة إلى أن ابن باديس كان أول من أدخل التعليم المسجدي للأطفال في قسنطينة، بعدما كان مقتصرًا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتايب القرآنية ثم أسس مكتبا للتعليم الابتدائي العربي.

وفي سنة 1933م دعا الشيخ ابن باديس جماعة من الشبان المنخرطين في الجمعية فأسس لهم فرع خاص بهم وخصص لهم درسين في الأسبوع، كما شجع ابن باديس فكرة تعليم البنات فنشر سنة 1931م بيانًا جاء فيه "لقد عذمت جمعية التربية والتعليم الإسلامية فتح دروس لتعليم البنات، فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب، فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانًا لتكون منهن المرأة المسلمة

المتعلمة "كمادعا ابن باديس إلى تعلم اللغات الأجنبية قصد الاستفادة من الحضارة الغربي حيثيقول": إنالذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هوأوروبا، فضروري لكل أمة تريد أن تستثمر ثمار تلك العقول الناضجة " وتعليمالبنات، وتعلم اللغات الأجنبية، التفتحعلى المدنية العصرية كل هذه المواقف فيالثلاثينات وفي مجتمع محافظ كالجزائريجعل حقا ابن باديس مجددا، خاصة عندمافتح الحوار مع الحضارة الغربية.

ولقداهتم مكتب التعليم الابتدائي العربيبالعلوم التالية): التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، التجويد، المواعظ، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، الأدب، محفوظاتومطالعات ودراسة الإنشاء، الحساب، الجغرافيا والتاريخ(،ولقد اعتمد على كتب من التراث الإسلامي :مثل)الموطأللإمام مالك، الرسالة لابن عاشر، الجوهرالمكنون، ديوان الحماسة، ديوان المتنبي،مقدمة ابن خلدون)

وبهذايكون ابن باديس قد أعاد للمسجد وظيفتهاالتعليمية والتربوية بعدما يعتمد علىإقامة الشعائر والطقوس الدينية خاصة فيوجود المرابطين، وكأن ابن باديس استفادمن إصلاحات عبده التي أقامها في الأزهر،يبدو أن ابن باديس أراد أن يعيد نموذجالمجتمع الإسلامي حينما جعل من المسجد : مؤسسة تربوية، وقلعة لمواجهة الاستعمار حينماكان يبيت في نفوس الجزائريين الوعي بخطورةالتدهور الذي آل إليه المجتمع الجزائريمن جراء الاستعمار.

المدرسة:إذاكان ابن باديس لا يولي اهتماما كبير للتعليم المدرسي بالمقارنة بالتعليمالمسجدي، فإن ذلك لم يمنع أن يهتم بالمدرسةالتي أشرف على بنائها ابن باديس ومن خلفوهمن علماء الجمعية، وقد كان لها دورا معتبرا في إرساء

جذور التعليم الإسلامي وقواعد اللغة العربية، أي الحفاظ على التراث العربي الإسلامي كوسيلة لدفع الفعالية في نفوس المسلمين، وكوسيلة دفاع ضد الاستعمار.

حيث أن النخبة التي تكونت في المدرسة الباديسية كان لها دور فيما بعد للمطالبة بالاستقلال. ولعل أول مدرسة بناها ابن باديس من تبرعات المواطنين وكانت مدرسة ابتدائية للتعليم العربي الابتدائي فوق مسجد سيدي بومعزة بقسنطينة، ثم تلتها مدرسة التربية والتعليم الإسلامي في عام 1930 مومما جاء في أهدافها : "نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية الفرنسية، الصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين" كذلك تم إنشاء دار الحديث في تلمسان بعد سنتين، وكان على رأسها الإبراهيمي، وقد تواصلت المدارس في عهد ابن باديس وبعده خاصة من طرف أتباعه من العلماء فقد وصل عددها سنة 1954 م أكثر من 150 مدرسة يتردد عليها أكثر من خمسين ألف طفل وبنت.

- **النادي** : لقد كانت وظيفة النوادي تتمحور في التوعية والتوجيه بالخطب والمحاضرات والمسامرات والمسرحيات والأشعار والأناشيد، ولقد كان على رأسها نادي الترقى الموجود بساحة الشهداء بالعاصمة حيث كانت تنظم فيه ندوات يومية لتوعية الشعب الجزائري وكان ينشطها جمع من العلماء من بينهم الشيخ ابن باديس والطيب العقبى والعربي التبسي والبشير الإبراهيمي.

وكانت الندوة عبارة عن جماعة يلتقون في محل خاص للبحث والتشاور في امر معين بحيث يعطى كل واحد منهم رأيه بالاعتماد على الأدلة والحجج والبراهين اللازمة، ولقد كانت القضية المطروحة ذات أهمية كبيرة خاصة كوسيلة لتصحيح تصور المتقنين الجزائريين وتوجيه تفكيرهم نحو القضايا ذات

الأهمية خاصة منها القضايا الوطنية، ولقد اتخذت تلك القضايا أشكالاً مختلفة منها:

- **قضايا دينية** مثل: الدين والسياسة، فصل الدين عن الدولة، الاجتهاد في الدين، تطبيق الشريعة الإسلامية، الأباطيل التي تروجها الطرقية.

- **قضايا اجتماعية** مثل: قضية تعليم المرأة، قضية انتشار المسكرات والمخدرات، قضية دور اللهو.

- **قضايا اقتصادية** مثل: قضية العمل والإنتاج، حقوق العمال، تمويل التعليم.

- **قضايا فكرية مذهبية** مثل: التقريب بين المذاهب، التعريف بمذهب الإمام مالك.

- **قضايا ثقافية** توجيهية مثل: المسرح، إقامة مسرحيات للتوعية، الصحف، المجالات، قضية التعليم.

- **قضايا أخلاقية** مثل: أزمة الأخلاق المعاصرة في الإسلام، أثر الأخلاق في بناء الأمم.

بعد 1936 أصبحت تطرح قضايا سياسية قضية الاستعمار، الحريات، الاستقلال، ولقد كانت الندوة تهدف علاوة عن أهدافها التربوية والتنقيفية إلى تكوين وعي ثقافي مستنير حول القضية المثارة.

المحاضرات والخطابات: كانت تدور هذه الخطابات في المساجد والنوادي وقد كان ينشطها الشيخ ابن باديس وكانت تدور مواضيعها حول القضايا التي تهم مصير الإنسان الجزائري وقضايا الحساسة خاصة الدين، ولقد شهدت المحاضرات انتشار كبير خصوصاً في فترة العشرينات من طرف ابن

باديسفي قسنطينة بالجامع الأخضر والبشير الإبراهيمي يتلمسان) الجامع الكبير (والشيخ "الطيب العقبي" في العاصمة بنادي الترقى والجامع الكبير، وقد شكلت تلك المحاضرات والخطابات؛ الأرضية والقاعدة الأساسية لظهور جمعية العلماء المسلمين، وبعد ظهورها أصبحت الخطب والمحاضرات أكثر مما كانت عليه، لوجود عدد كبير من العلماء أمنك تعميم المحاضرات والخطابات في كل الوطن الجزائري.

المؤتمر: وينعقد في فترات دورية بين فترة وأخرى سنة أو أكثر إذا كانت منتظمة وتتخللها مؤتمرات طارئة للضرورة وقد يبدو أن المؤتمر لا يكتسي أهمية كبيرة في التربية، في حين نجد أن هذه الوسيلة تكسي أهمية من حيث طرحها قضايا مختلفة ومتنوعة. "ومما تميزت به المؤتمرات التي كانت تجمع الشيخا بن باديس مع العلماء أو طلبته أو رجالا للسياسة والجمعيات الأخرى أو حتى عامة الناس هو إعطاء الفرصة للسائل لطرح فكرتها الإصلاحية وتوضيحها والإجابة عن تساؤلات الحاضرين، مما يزيد التعمق فيها أكثر ثم أخذ الموافقة عليها من طرف المشاركين.

- المسرحيات، الأشعار والأناشيد: لقد أضاف ابن باديس الأنشطة الفنية كوسيلة لتفاعل الجزائريين مع المشاكل التي تطرحها الجمعية وقد كانت تحييها فرق وطنية وظيفتها الأساسية: تحسيس الأمة بمأساتها في أسلوب يجمع بين الهزل والجد، حيث أوجدت الجمعية مدرسة شعرية استطاعت أن تجمع بين قوة الكلمة ومشروعية القضية التي تثار ومن أهم هؤلاء الشعراء محمد العيد آل خليفة ومفدي زكريا، وأحمد سحنون وعبد الكريم العقون وابن باديس والأمين العمودي الذي كان يكتب باللغتين الفرنسية والعربية.

الصحافة: عملت الصحافة على نشر مبادئ وأهداف الفكرة الإصلاحية عند ابن باديس في أول الأمر أيقبل 1931م أي بعد هذا التاريخ فقد أصبحت تعمل على نشر مبادئ وأهداف الجمعية والدفاع عنها ضد الخصوم والأعداء، كما عملت على نشر المبادئ والأفكار الدينية وكيفية توظيفها في الواقع الاجتماعي وذلك من خلال مساهمة عدة أقلام بارزة في هذا الميدان كالإبراهيمي وأحمد سحنون... إلخ، وأول جريدة صدرت من طرف الجمعية أسبوعية باللغة العربية باسم "المنتقد" وذلك بتاريخ 125.06.02 مولم يظهر منها سوى 18 عددًا قبل أن تمنعها السلطات الفرنسية من الصدور "نظرًا لما كانت تشكله من خطر على المشعوذين من رجال الطرق من جهة وعلى المستعمر الفرنسي من جهة أخرى، فقد كتب في افتتاحية العدد الأول من جريدة المنتقد أن يسلط قلم نقد على "الحكام والمديرين والنواب والقضاة، والعلماء، والمقاديم، وكل من يتولى شأنًا عامًا من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين.

لقد لاحظ ابن باديس أن العمل التربوي لا يمكن أن يستغني عن الصحافة، فعمد إلى إنشاء جريدة "الشهاب" في نفس السنة وصدر عددها الأول يوم 1925.11.12 موكانت أسبوعية وتحولت بعدها أي سنة 1929م إلى شهرية وكانت أقل حدة من سابقتها، إلا أنها كانت أطول عمرا وأكثر فعالية "كانت الشهاب من أكبر المجلات الجزائرية تأثيرا خلال عقدين "هذا ولم يكتف" ابن باديس "بهاته الجريدة فعمل على نشر مقالات الجمعية في الجرائد التالية": البصائر "السنة" و"الصراط" "الشريعة" وغيرها من المجلات والجرائد. ولقد استعمل ابن باديس بعض الطرق لتحريك الرأي العام الجزائري كتلك المسابقة التي تضمنتها جريدة الشهاب العدد 128 تحت عنوان "كيف يكون إصلاحنا، وهو من جهة استفتاء بمدى استعداد الشعب خاصة الطبقة المثقفة. وتأكيد النهضة والصحة. وهكذا كانت الصحافة الأكثر قدرة على الانتشار والتداول، لذلك بادر الاستعمار بمحاربتها، حيث اضطر ابن باديس

في بعض الأحيان تغيير لغة التعامل حتى لا يضيع نشر الجريدة، لأنها تمس الاستعمار أو خاصة المرابطين.

الرحلات: أهم ميزة لهذه الوسيلة هو التربية الجماعية والعملية حيث كانت تتطلب جهدا وصبرا كبيرا لأن الباحث كان يباشر الميدان في جماعات حتى يستخلص ما يريد دراسته ولقد كانت هذه الرحلات هي السبب الرئيسي في "تكوين الكشافة الإسلامية" التي كانت خير ممون للثورة الجزائرية ولقد ضمت كثير من تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس.

البعثات العلمية: لما كان من الصعب أو قل من المستحيل تكوين الطبقة المثقفة، التي تحمل على عاتقها مصير الجزائر خاصة إشكالية نهضته، عملت الجمعية إلى تنظيم بعثات إلى كل من تونس (جامع الزيتونة) (أو إلى مصر جامع الأزهر أو العراق وحتى سوريا والحجاز).

7- ردّ فعل الاستعمار على الحركة التربوية الباديسية:

لم تكن السلطات الفرنسية تولي اهتماما كبيرا بالدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان يلقيها بالجامع الأخضر بقسنطينة، ظنا منها بأنها لا تخرج عن دائرة الدروس التي كان يلقيها الفقهاء من أمثاله في ذلك الوقت، حيث كانت تدور أساسا حول المسائل الفقهية كالصلاة والزكاة وصوم وأحكام المواريث.

سخرت الحكومة الفرنسية بعض الطريقين لخدمة سياستها، لأن الشعب الجزائري كان يتقفيهم ولا يثق في الحكومة الفرنسية، ولقد عقد مؤتمر بفاس (المغرب) (في شهر مارس 1938) بمشاركة رجال الطرق من الجزائر، تونس، المغرب ونشر الشيخ ابن باديس البيان الختامي للمؤتمر قائلا: "إن أرباب الطرق يوالون الإدارة الفرنسية، بالأقطار الثلاث ويشيدون بأعمالها

العظيمة ويبررون كل ما تقوم به من أعمال القمع والزجر ويتبرؤون من الفئة "الضالة" التي تطالب بالحرية والاستقلال ويستنكرون أعمالها. "

والمواقف السلطانية الفرنسية لم تنتبه لخطورة ابن باديس وحركته التربوية إلا بعد تأسيس جمعية العلماء إثر الجملة التي شنها على دعاة الإدماج والتجنيس والجمود، فظهر رد فعل بإيقاف صحف الجمعية الثلاث : السنة، الصراط، الشريعة على التوالي سنة 1933م، و"إصدار عامل عمالة الجزائر العاصمة قرار سنة 1933م يقضي منع العلماء من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد التي تخضع لسيطرة الإدارة الفرنسية. "، وإصدار قرار 8 مارس 1938م يضع قيوداً ثقيلة تحول دون ممارسة التعليم العربي الحر أصدره وزير داخليتها) شوطان (والقاضي يمنع التعليم العربي واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ولقد وجد هذا القرار رد فعل قوي من طرف المدرسة البادية آنذاك حيث كان هذا القانون كفيل بشل كل نشاطات الجمعية حيث نددت الجمعية بذلك في جرائد الشهاب والبصائر، ولقد جاء في إحدى هذه الجرائد المثالي " : إن أعداءنا علموا ألا بقاء للإسلام إلا بتعليم لغته، فناصرها تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاط تعليمها بالمكر وهو البلاء، ومحاولة زعزعة استقرار الجمعية بزرع الشبهات حول رجالها من ذلك سجن بعضهم أمثال : الطيب العقبي بتهمة الاغتيال وألقي القبض على عبد القادر الباحوري وعلى بن سعد وعبد العزيز الهاشمي، كما نفي الشيخ البشير الإبراهيمي إلى أفلو، وفرضت الإقامة الجبرية على الشيخ العربي التبسي، ومحاولة اغتيال الشيخ أحمد) غير مفهوم (107) وتلصيق التهمة بابن باديس.

هذه بعض الأحداث التي تفسر الخطة الاستعمارية التي رسمت للقضاء على جمعية العلماء، لكنها بالرغم من تأثيرها على بعض الأفراد مثل الشيخ العقبي

الذي انسحب من الجمعية إلا أنها لن تنل من عزيمة باقي أعضاء الجمعية وعلى رأسهم ابن باديس، وإغراء بعض النواب من طرف الحكومة الفرنسية مقابل تخليهم عن تأييد الجمعية والدفاع عنها، ولقد أوضح ابن باديس موقف الإدارة الفرنسية من الجمعية قائلاً " : الجمعية مضطهدة من الحكومة، ومعاكسة في أعمالها من أول نشأتها، وكان ما تنقمه الحكومة عليها بعثها النهضة العلمية والدينية في الأمة الجزائرية بعد طور رقادها وبأساقطين والمقطين من يقظتها. "

8- مظاهر الإصلاح الباديسي:

8-1 الإصلاح التربوي: لقد نال الميدان التربوي القسط الكبير مناهتمام الجمعية ورجالها أيام ابن باديس خاصة، حيث تم تقديم انتقادات لاذعة لطرق مناهج التدريس المستخدمة في المعاهد الإسلامية عموماً والمغربية خاصة باعتبارها بعيدة كل البعد عن أغراض التربية الإسلامية الحقيقية وبناء على هذا النقد وجدت نية إصلاح التعليم الديني الإسلامي في الجامع الأخضر بقسنطينة - وقد قام به ابن باديس وطلبته - علناً يعم ذلك على باقي المعاهد الإسلامية الأخرى ومن بين هذه المحاولات "طلب" ابن باديس (من أعضاء جمعية العلماء في مؤتمرها الذي انعقد بنادي الترقى في شهر سبتمبر 1935م دراسة قضايا التعليم العربي وكيفية النهوض به ووسائل نشره في عموم القطر، والصعوبات التي تعترضه، فقدم أعضاء الجمعية تقريراً حول "محو الأمية"، "التعليم المكتبي" ومشاكله. وقدّم ابن باديس تقارير بمثابة الأرضية التي انطلق على أساسها ابن باديس في إصلاح مناهج وطرق التعليم فشهد المعلمون ثورة حقيقية في ميدان التعليم والتربية كما دعا ابن باديس رجال التعليم إلى عقد مؤتمر عام بنادي الترقى في العاصمة (يومي 22)، (23 من شهر سبتمبر 1937م تحت إشراف جمعية العلماء، فكانت

بالتالي أول أيام دراسته حول إصلاح التعليم العربي في الجزائر ولقد كانت غاية هذا المؤتمر هو التوصل إلى توحيد المناهج للتعليم الحر العربي في الجزائر (وإدخال إصلاحات جديدة تتماشى وأهداف الجمعية التربوية كما ساهم ابن باديس قبل ذلك سنة 1913 بمحاولة إصلاحية لمناهج التعليم بجامع الزيتونة في تونس، ومن الاقتراحات التي قدمها ذلك المتعلق بتقسيم التعليم إلى قسمين، "قسم المشاركة بمثابة الجذع المشترك، يحصل المتعلم بعده على شهادة" عالمشارك "وقسم التخصص ويحصل المتعلم بعد إتمامه على شهادة" العالمية "كما وضع شروط ومقاييس لا بد أن تراعى في اختيار المشايخ والأساتذة الذين يدرسون في قسم المشاركة والتخصص كلا على حده. "

ولقد عاد ابن باديس بفضل الدروس والحلقات التي فاقت 12 حلقة في اليوم (1913-1940م) (وإدخال التعليم الأساسي للمسجد دوره التربوي والتعليمي) خلفي التركيب (، حيث استطاع المسجد أن يكون مجموعة كبيرة كان لها دور في نشاط الحركة) جمعية العلماء المسلمين (، كما كان لها دور سياسي عندما شاركت تلك النخبة في الثورة التحريرية ومن بينهما الكشفة الإسلامية الجزائرية، ثم أن الفضل يرجع لابن باديس في إدخال تعليم الصغار في التعليم المسجدي بعدما كان مقتصرًا على الكبار "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصراً على الكبار، ولم يكن للصغار إلاّ الكتاتيب القرآنية فلما يسّر الله لي الانتصاب للتعليم عام 1913 جعلت من جملة دروس تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية وكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار. "

ثم عمل على إنشاء مدرسة ابتدائية بمساعدة بعض المصلحين فأصبح الأطفال يتعلمون فيها عوض التعلم في المسجد، أما تعليم البنات فنال تشجيعاً كبيراً من

طرف ابن باديس، ولقد قال: "إذا أرتم إصلاح المرأة الحقيقي فارتفعوا حجاب الجهل من عقلها قبل أن ترتفعوا حجاب الشرّ عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها" وعنتديده لمكانة المرأة في المجتمع ودورها، وهو الأساس الذي بنى ابن باديس على أساسه ضرورة تعليمها: شقيقة الرجل وشريكته وبالتالي الاعتناء بالرجل وتكوينه يقتضي الاهتمام بالمرأة وتكوينها "المرأة التي تلد لنا رجال يطيطرون خير من التيطيطير بنفسها" إيماناً منه بأن لكل دوره ورسالته في الحياة، فهو يرى بأن دور المرأة يكمن في إعداد الأجيال دون أن تفقد صفاتها كامرأة، فهو يفضل أن تكون المرأة الطيار لا أن تطير بنفسها، كما رفض ابن باديس في مدرسته لتعليم الذكور والإناث التي تبنتها جمعيته "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" أن يأخذ أجراً على البنات وذلك دليل على تشجيعه وتحفيزه لتربية البنات وتعليمهن، وهكذا نجد أن ابن باديس باهتمامه بتربية المرأة وتعليمها قد عمّق مفهوم التجديد في إصلاحه عندما أدى ذلك الاهتمام إلى مس الأسرة أو العائلة الجزائرية وهي الخلية الاجتماعية التي تقوم بوظيفة التنشئة الاجتماعية، إذ كل مس بأعضائها خاصة المرأة -تقوم بنقل التقاليد والقيم إلى الأجيال عن طريق التربية -يؤدي إلى تغيير عميق في المجتمع. هذا الاهتمام بالتربية عن طريق المساجد والمدارس وأغلب الوسائل التي تبناها ابن باديس كانت تنطلق من الأصالة كمبدأ وتتعامل مع الحداثة كضرورة فرضتها الظروف التاريخية، فهكذا استطاع ابن باديس أن يجد حلاً للمعادلة الصعبة التي زادت إشكالا كلما زاد التطور في العالم والمتمثلة (فيما يتطور الحضاري مع الاحتفاظ بالأصالة) خاصة مع انتشار النسق الرأسمالي اليوم في العالم. ولقد أدت اهتمامات ابن باديس ونشاطه التربوي إلى إعادة الفعالية للفكرة الدينية على أساس نتيجتين: القضاء على الذين شوهوا التصور الحقيقي للإسلام خاصة عندما حاربوا الاجتهاد واعتبار هيدعة، بينما يعتبر هذا المبدأ من أهم مقومات وشروط استمرارية

الفكر الإسلامي مبادئه حيث يعجز بدونه المسلم على أن يجد تصورا صحيحا لمستجدات العصر، ويفقد بذلك الإسلام قوته الاجتماعية كعامل تطور وحضارة وينحصر في العبادات والطقوس، أما النتيجة الثانية التي حققها ابن باديس عن طريق مشروعه التربوي هو تكوين النخبة التي سوف تطالب بالاستقلال وهناك من شاركت في الثورة "كالشفافة الإسلامية".

2-8 الإصلاح العقائدي: لقد حاول ابن باديس إبراز مأساة الجزائر طيلة 27 سنة التي قضاها في العمل التربوي من خلال دروس الوعظ والإرشاد وكل ما أتيج له من وسائل سبقت الإشارة إليها، إيمانا منه أن حالة التدهور والتأزم ناتجة عن أسباب معينة، يكفي أن نزيلها بعد تفهمها حتى نزيل ذلك التدهور والتأزم، فأكد على ضرورة القضاء على فكرة أن ما تعيشه الجزائر من أوضاع سيئة هو بلاء من عند الله، وأن موقفنا اتجاه هذا البلاء هو الصبر حتى يأتي الله بالفرج ولقد عمل البعض على انتشار هذا المفهوم للحفاظ على مصالحهم ووجودهم وكانت تلك الفكرة تشكل عائقا كبيرا أمام فعالية الجزائريين في كل الميادين خاصة مواجهة الاستعمار ويصوغ مشكل اللا فعالية عند المسلمين إلى الفصل بين العقيدة والعمل: "إن المسلمين لم يضعفوا إلا عندما فرقوا بين العقيدة والعمل، فكثرت البدع وصنوف الضلال، فبسبب التدهور يرجع إلى الابتعاد عن الكتاب والسنة"، أي أنه يرى أن إعادة الفعالية للفكرة الإصلاحية هو سبيل إصلاح المجتمع الجزائري. كما ركز ابن باديس على تكوين نخبة من الطلبة تم توزيعهم فيما بعد على شتى أنحاء الوطن كانوا بمثابة المواجهة الفعالة التي حاولت أن تقلل من تأثير بعض الطرق، قال ابن باديس "كان الناس كأنهم لا يرون الإسلام إلا الطريقة وقد زاد ضلالهم ما كانوا يرون من الجامدين والمغرورين من المنتسبين للعلم من التمسك بها والتأييد لشيخها وبذلك أصبح من الضروري إعادة البناء المجتمعي فأعلن بذلك ابن باديس الحرب ضدهم ولقد برر ابن باديس محاربتة للطريقة قائلا: "حاربنا الطريقة لما عرفنا

فيها من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب. ولقد استطاعت الجمعية أن تقنع الجزائريين وتجلب الرأي العام، حيث تظاهر الشعب سنة 1933 1934 ما احتجاج على قرار منع العلماء من إلقاء الدروس في المساجد، كذلك تضامن الشعب بأمواله، رغم فقره في بناء المساجد الإصلاح السياسي: لما أعلن ابن باديس على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أراد أن يوهم فرنسا بأنها جمعية تهتم بالإرشاد والتثقيف ونشر القيم الإسلامية ولا شأن لها بالسياسة، ولقد جاء ذلك في الفصل الأول من القانون الأساسي للجمعية: "تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وجاء في الفصل الثاني "لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أنتخوض أو تتدخل في المسائل السياسية، غير أن هذه التشريعات كانت وسيلة لتغطية الأهداف الحقيقية للجمعية حتى لا تصطدم مع الاستعمار، ذلك أن ابن باديس كان كثير الاقتناع باستحالة فصل العلم عن السياسة خاصة في الظروف التي كانت تسود الجزائر، يقول ابن باديس: "لا بد من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة وتأكد ذلك سنة 1936 ملما دعا ابن باديس إلى المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد بالعاصمة، وجمع كلاً لتشكيلات السياسية والاتجاهات التي كانت موجودة على الساحة، فكان أول تدخل رسمي للجمعية في القضايا السياسية، ولقد أصبح موقف الجمعية أكثر سياسياً عندما تلقت عدة ضربات من طرف الاستعمار خاصة (1936-1937-1938)م (حيث أدت بها "إلى التقارب مع العناصر الأشد وطنية وخاصة حزب الشعب الجزائري" وأدب هذا التقارب بين أعضاء الجمعية وعناصر حزب الشعب إلى تطوير خطاب الجمعية في تعاملها مع المستعمر وقد برز ذلك أثناء حرب فرنسا مع ألمانيا حيث "اتصلت الإدارة الفرنسية بجمعية العلماء أو لأكهية، ولما لم تحصل

على ما كانت ترغب فيه استعملت طريقة الاتصالات الفردية بأعضاء الجمعية... وكانت تعتقد أن باستطاعتهم إقناع رئيس الجمعية بوقية الأعضاء، إلا أن هؤلاء رفضوا كل العروض على توجيه برقيات الولاء والتأييد لفرنسا في حربها ضد الألمان كما رفضوا توجيه نداء إلى الشعب الجزائري بدعوة إلى الوقوف بجانب فرنسا والجهاد في سبيلها.

وقد عبرت عن رفضها لتقديم أي مساعدة للحكومة الفرنسية في حربها مع ألمانيا بحيث أوقفت إصدار صحافتها بمحض إرادتها وقللت من نشاطاتها حتى لا تتعرض للضغوط من طرف الحكومة الفرنسية قصد تأييدها في حربها كما كان ابن باديس ينصح الشباب بعدم حمل السلاح إلى جانب الجيش الفرنسي حيث وجه كلامه للذين شملهم التجنيد سنة 1939 مقائلًا "لا تضربوا عدو العدو إياكم ثم إياكم."

كما استطاع ابن باديس أن يجد من عملية التجنيس بفضل فتواته بخصوص التجنيس بجنسية كافر لفتوته هذه عظيم الأثر حينما جعلت الجزائريين يتمسكون بوطنيتهم وشخصيتهم العربية الإسلامية، قال: "التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكمًا واحدًا من أحكام الإسلام عدّ مرتدًا عن الإسلام بالإجماع فالجنس مرتد بالإجماع". كما وقف ابن باديس موقفًا جديًا من الإدماج حينما اعتبر الشخصية الجزائرية منفصلة تمامًا عن الشخصية الفرنسية ولا يمكن أبداً الجمع بينهما "إن الشعب الجزائري ليس فرنسيًا، ولا نريد أن يكون فرنسيًا لأنه بعيد كل البعد عن فرنسا، بلغته وعاداته وأصوله ودينه". لقد ساهم ابن باديس بفضل مواقفه السياسية وحتى غير السياسية في توجيه المسار السياسيني نحو الاستقلال حيث كونت المدرسة الباديسية نخبة من الجزائريين سوف يكون لها دور كبير في المطالبة بالاستقلال.

9- خاتمة:

من خلال التجربة الباديسية يلاحظ أن المجتمعات التي تحرك دائم والوصف القائم على أن انحطاط المجتمعات يؤدي إلى الركود والجمود طرحام ونسبي، بحيث نجد أن الحركات الإصلاحية ما هي إلا نتيجة نضج أفكار ووصول ثمرة عملا إلى أداء وظيفتها، بحيث لا يمكن تصور ظهور حركة دون مراحل معينة هي التي عادة تشكل مرحلة الانحطاط وهذا لم يمنع أن تكون حركات تصل إلى وجود حركات إصلاحية، والتناقضات الداخلية وجدلية الاستعمار والمستعمر تؤدي إلى رد فعل المجتمع بحيث تبرز التغيرات التي تعبر عن تحرك المجتمع دائما.

وحيث ننظر في المجتمع الجزائري المسلم نرى تحرك بعض الفئات الاجتماعية وهي الفئة المتعلمة وأن الصدمة التي وقعت بمقتضى الاستعمار هي التي شاركت في ظهور رد فعله، في محاولة للخروج من الركود الذي يحدث عنه آخرون، فنظرتهم تجاهلت التحركات وجدلية التغير القائمة على التحرك المستغل والمستغل.

من خلال تجربة جمعية العلماء المسلمين ضمن المجتمع الجزائري نجح ابن باديس في إحياء فعالية تلك الروح الإصلاحية في تلك الظروف والاستعمارية الصعبة، وتكمن صعوبتها في الاصطدام بالاستعمار وهذا يمثل من جهة خطرا على الشعب الجزائري ومن جهة أخرى تسبب في تحريك الهمم من جديد وهذا ما تعبّر عنه التجربة الباديسية بعينها، لأن ابن باديس في منهجه اعتمد على نقد المستعمر والمستغل لكن أضاف النقد الذاتي للكيان الإسلامي.

قائمة المراجع بالعربية:

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1900، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1983م.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1945-1930، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1986م.
- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، الأنيس، 1990م.
- أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج2، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1984م.
- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس بيروت، ط2، 1986م.
- العسلي سام، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار النفائس بيروت، لبنان، ط1، 1981م.
- أمنة تشيكو، مفهوم الحضارة عند كل من أرلوندتويني ومالك بن نبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
- تركيرابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ط3، 1981
- توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، تفسير ابن باديس، دار الفكر للطباعة والنشر، ط3، 1979م.
- جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد 32، السنة الثانية، 19/04/1948
- جريدة العصر عن المجلس الإسلامي الأعلى، العدد 85، السنة الثانية، 18/04/1983
- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، ط1، 1984م.
- علي عبد الحليم محمود، وسائل التربية عند الإخوان المسلمين، دار الصديقية للنشر والتوزيع، ط1، 1990م.
- عمار طالبي، عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، دار اليقظة العربية بيروت، لبنان، ط1، 1968م.
- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر دمشق، 1960م.
- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر دمشق، بدون سنة، ترجمة: عمر مسقاوي.
- مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية صيدا بيروت، بدون سنة، المترجم: عمر كامل المسقاوي.

- مالكن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر دمشق، 1978م.
- مالكن نبي، شروط النهضة، دار الفكر دمشق، ط3، 1969م، المترجم: عمر كمال المسقاوي، عبد الصبور شاهين.
- مالكن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندوغ، دار الفكر دمشق، 1981م.
- مالكن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر دمشق، ط2، 1984م، المترجم: عمر مسقاوي.
- مالكن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر دمشق، 1988م، ط1، المترجم: بسامبركه، أحمد شعبو.
- مالكن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر دمشق، 1979م، المترجم: عمر مسقاوي.
- مالكن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر دمشق، سنة 1981م، المترجم: عبد الصبور شاهين.
- مالكنبي، بين الرشاد والنتية، دار الفكر دمشق، ط1، 1978م، المترجم: عمر مسقاوي.
- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964م.
- مجلة الرسالة، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث قسنطينة، الجزائر، العدد 2/3، السنة الأولى، 1980م.
- محمد الصالح الصديق، الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من آرائه ومواقفه، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1983م.
- محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1985م.
- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ترجمة: حنفي عيسى.
- من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، ج3، ج4، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1984م.
- من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، مجالس التذكير وكلام الحكيم الخبير، دار البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1982م.
- يوسف القرضاوي، أين الخلل، مكتبة رحاب الجزائر، ط2، 1986م.
- Malek Benabi, le problème des idées dans le monde musulman.
- Malek Benabi, Vocation de L'islam.

- Abdellatif Benachenou, Formation du Sous-Développement en Algérie, entreprise nationale du livre, 1^{er} édition, 1978.
- YounneTurin , Les Affrontement Culturels dans L'Algérie coloniale, français Maspero, France,1971.
- Petit Larousse Illustre, 1991.
- Dictionnaire de la Pensée Politique, Hommes et Idées.